

محمد عبد الصبور... بين المعرفة والتجربة

بقلم ابي الحامد

بيد ان الاخلاص قد ما يتحول الى آفة تهي بالشعر ، اذ يشتد وينزو . في قوم عديمي الثقافة او ذوي ثقافة مكتفية ، تدعي العصمة دون ان تتجدد . ولقد طالما بصرنا بقصيدة تفيض حماسا لوتر وطني ، فتتحدث عن الشرف والبلذ او تغني بمجد قديم او عتيق ، الا ان ذيك الحماس والحديث ليسا بكيفيان وقد لا يجديان في الخلق ، وربما الفيناها يشوهان بعنفهما تؤدة الصنيع واختماره في الضمير الفني . فلا مندوحة للتجربة من ان تكون مثقفة او الثقافة مجربة ، معناة ، دون ان نعي ونتضح علاقة الواحدة بالآخرى او اثر احدهما على الثانية ، وانما نشعر به في عصب ذائقتنا المبهمة . فالن لكي يتكافأ وينفذ الى غايته ، ينبغي ان تزكيه الثقافة الانسانية التي تقرب بعض الشيء الى الفلسفة وان لم يكن لها حدودها وطقوسها ، فهي اشبه بالمعانة التي تنتج من مضاعفات التجربة او ما يرسم في قاع نفوسنا ، غبء القراءات والاحوال التي تختلف علينا ، فنكسب بها لنفسنا عمر النفس البشرية او على الاقل بعضه . ان حماس القروي الساذج ، او القوم السذج ، فيما تطأهم حمية الوطن او الرسالة ، يقدر بقيمته الوطنية . اما من الوجهة الفنية فلا قيمة له الا بقدر ما يشخص ويتفاعل فيه ، فضلا عن ذلك ، من ثقافة تسمو به عن بداوته وترتبط مصيره بمصير الانسان الكبير .

الا ان الثقافة تلبث خطرا على الصنيع الفني الذي طفقت تراوده من الخارج . هناك فئة من الادباء تطالع آثار احد الفنانين الخالدين ، تستشف اصولها الفنية ، وتؤلفها في نظريات كمعارف باردة ، ثم يحاولون ان يحذو على غرارها بقصائد ذهنية لا رصيد لها في الضمير . الواقع ، ان الثقافة ينبغي ان تصقل الموهبة وتغني التجربة ، حتى اذا ارادت تلك الموهبة ان تتحقق ، تتحول الثقافة الى غذاء مبهم في جسد الصنيع الفني ، فتتصل النفس بحقائق نفسية لا قبل للشعور البدائي بها .

وهكذا نبصر ان السوية الادبية تقتضي ثقافة فنية وانسانية على من يخلص لتجربته ، واخلاصا على من قويت ثقافته ، تتحد جميعا في ذهول النفس حتى تفيض بصور الابداع . وكانما نشهد بعد ذاك الخطأ الذي يتردى به من يسمي هذه العملية بالالتزام ، لان لفظة الالتزام تفترض بمعناها غصبا للذات ، بينا تقوم هذه العملية ، في الواقع ، على فيض الذات دون اغتصابها .

ما برح بعض الادباء يلتزمون بدعوة خاصة في الاجتماع والسياسة ، وربما تهادوا بها حتى جعلوا يعنون بغاية الاصلاح على الغاية الفنية . ولقد قدر لنا ان نشهد جماعة من القوم يحتفلون بقصائد مما لا شفيح لها الا فضيلة الموضوع ، لانها تبتر بمعان توافق هواهم وعقيدتهم . ولعلنا اذا واجهنا واقع الاشياء ، تحققنا انه قلما تؤثر طبيعة الموضوع في خلود الادب . او لم نر الى تلك القصائد اللعينة او ذات الموضوع التافه كزلايية ابن الرومي وكروسي ما لرميه ، او لم نر الى هذه تنزع بالواقع الشائع الى واقع فني اسمى ، فتخلد ، بينما يسفح ويتردى قصص النهضة عندنا ، بالرغم من ازحامه بالارشاد والدعوات ؟ مثل هذه الشواهد تكثر في الادب العربي وفي الادب الآخرى مما لا جدوى من الافاضة بذكره ، بل نكتفي بان نلتفت اليه بهذه الملاحظة ، حتى لا نلبث نفاضل المواضيع ، احدها على الآخر ، بغناه او طبيعته ، بل بقدر ما يشخص ويبرم فيه من معانة الشاعر وحقيقته .

ولقد نشهد ، الى ذلك بعض الادباء ممن يلتزمون بما يعرفون في ذهنهم ، او هم يتحاملون للبحث فيه ، فيعمدون الى تقريره بقصيدة لا حرارة فيها ولا يقين . اينما لا يدرك فضيلة الخير على الشر ، والاصلاح على الافساد ، الا ان هذا الادراك يعجز عن اي يورى النفس بطور الدهول والخلق ، وانا مهما حاولنا ان ننظم مداركنا بشعر ، لن يكون عملنا الا تزويرا ، فلا قيمة لمعرفة نعرفها اذا كانت النفس لا تبالي بها .

فاذا تكبدنا على النظم تكبدا بما ندرکه من امره ، يفتقد الشعر الاخلاص وبالتالي يفتقد ذاته . اما اذا لم تقتصر على معرفة الحق ، بل تواقنا فيه لنحقق رسالته فتعقد وارتبط بنفسنا حتى اصبح مصيره مصيرنا ، او على الاقل ، اذا ما لبثنا في لبس من امره ، اشكلت به نفسنا ، حينذاك تصبح العقيدة او الرسالة حرية ان تفيض بادب سوي ، لان الشاعر يتحدث فيها بحديث نفسه ، يجسد تجربة خبر اساهها ونشوتها . فالقضية اذا قضية واقع تعاطى به الفكرة ونعايشها ، حتى تصبح محور تعاستنا وسعادتنا . واذا اجهدنا في التعبير عنها ، فكاننا نعبر عن مأساتنا في مأساة الحق ، او نتحدث عن مصيرنا في مصير تلك العقيدة . هكذا تخصب ذات الشاعر بانفعالات ورؤى ، وتنفذ به الى طور من التخطف والذهول تشرق فيه الصور ، او تؤدي الى انفعال خلاق وفق ما يرى برغسون ، يضي على النفس ييقين تفتنح به اعصابنا قبل ان يعبث به عقلنا .

وفقا لهذه المبادئ تتولى ديوان صلاح الدين عبد الصبور، في تجربته فضلا عن وجهي ثقافته، لنبصر اخلاصه ونجاحه في تحقيقها عبر وحدة نفسية متكافئة .

لعل اول ما يلتفتنا في هذا الديوان ان بعض قصائده تطلع بمناجاة صديقة للشاعر ، غفل ، دون ملامح ، ليس يناجيهما بما درجت عليه عادة المناجاة بين رجل وامرأة ، وانما يشكو لها اساه واسى رفاقه بمصيرهم ، فكانه ليس يلتقي بها على صعيد الحب بل على صعيد المجتمع والوطن .

ولا بد للقارئ ان يسائل هنا ويتحرى اذا كانت نفس الشاعر تطهرت وصفت ، حقيقة ، بما يسر له مصادقة المرأة في انسانيته دون جنسها . ولئن كان سهل الحديث على هذا الامر فانه لا شك يعسر تحقيقه والتعفف به ، لان المرأة لا تنفك تراود المرء بخيئة لا تكاد تستسلم ، حتى يستفيق شيطانها اشد اغراء وعنفا . فالى اي حد يمكننا ان نصادق الشاعر بتجربته في امرأة ماتت انوثتها بالنسبة اليه ، فلم يعد يناجيهما بما يحبه او يعانیه منها ، بل بما يلقيه ويتخبط به في مصيره مع رفاق الجهاد ؟ لذلك يكاد يخيل الي ان هذه المرأة ليست سوى اسلوب خارجي في عادة القول ، والغنائية ، لا تلبث ان تمحي عن امرأة حقيقية في قصائد اخرى يمتزج فيها الشاعر بين الجسد والوجد . تسفر شهوته سفورها عند امرئ القيس وموسيه وفرلين ومن اليهم ، ثم لا تعتم ان تصفو وتتوجد حتى لتغشاها عذوبة الحنين والبراح في شعر الرومنطيين وفرسان القرون الوسطى .

ولعل الفحش في شعر عبد الصبور ليس فحشا بل تفحش ينسحب به على ذيل احد الشعراء المعاصرين الذي اختص به واستنفده . فقصيدة « منحدر الثلج » تنسج على غرار المرأة كما عرفت في قصائد نزار قباني عامة وفي « طفولة نهد » خاصة . وللقارئ هذه الابيات الحاسمة :

اعانية الخطو قلبي ين على رنة الخطوة العانية - لكم اشتهي ان اعض النلال واقترب القمة العالية . اعانية الخطو كلت خطاك عن السعي للقبلة النائية - ويأتي هنا خطوة لليمين على الباب تعريشة زاوية - انا عابد وثني الصلاة ولي من دمي قيم ساميه .. - فوا لهفتنا ، كم احب النلال وكم اشتهي ان ارى عاريه .

فالعنوان والتعابير فضلا عن الصور بعضها لنزار وبعضها مقتبس او بالاحرى منسوخ عنه . الا ان الشاعر سرعان ما يجد نفسه في قصيدة « نزهة الجبل » حيث يتحدث عن المرأة الانسان التي تغشى نفسه بالحنين وتتخطفها بالبراح والذهول فيتحول شعره ، الى شبه حلولية بين الحب والطبيعة في ومضة نفسية مسرعة .

« وفي لقائنا الاخير يا صديقتي وعدتني بنزهة على الجبل اريد ان اعيش كي اشم نفحة الجبل .. لكن هذا الطارق الشرير فوق بابي الصغير، قد مد من اكتافه جذع نخله عقيم .. »

نفحة الجبل هي ، في الواقع ، نفحة حبيبته ، التبتت عليه في فوضى وسرعة اللحظة النفسية التي يعبر عنها . فالشاعر يبدو هنا كفارس رومنطقي ، او كبطل في افاصيح

ومسرحيات النهضة ، يقف الواجب والشرف بينه وبين حبيبته ، وان كان في نفسية عبد الصبور اسى بالوجود وتعقيد اكثر مما نبصره في ذينك الفارس والبطل .

ولا نلث ان نشهد الشاعر في قصيدة لاحقة « رسالة الى صديقه » يستطرد في حديثه عن امرأة تقرب ملامح انسانيته الى التي سلف الحديث عنها ، فهي ليست امرأة تصحبه في الجبهة والخندق ، يرتديها وجه الملحمة هي ليست عبلة التي لا تعجب الا بعنتر الفروسية ، وانما هي القديسة المادونة ، التي يصلي لها الشاعر صلاته . وكما ان مدام دي ساباتييه ، ملاك بودلير ، تضيء في نفسه سبيل الجمال والخير ، تبعث في سقمه العافية ، وفي ريبته اليقين ، كذلك صديقة عبد الصبور ، فهي كمسيح الانجيل ، تنهض به من يأسه ، واغتماضه للموت ، تدب العافية في صديقها المحطم ذي القلب الكسير :

صديقتي ... انني مريض ، وساعدي مكسور ، ومهجني على الفراش كل ساعة تسيل ، هذا الصباح ، ادرت وجهي للحياة واغتمضت كي اموت ، في هداة السكون ، قد آن للشعاع ان يغيب - وطرفتين فوق بابنا .. موزع البريد ! .. لا لا اريد . هل من مزيد ، يا حياة محتني هل من مزيد؟ .. خطابك الرقيق كالقميص بين مقلتي يعقوب ، انفاس عيسى تصنع الحياة في التراب ، الساق للكسيح ، العين للضير ، هناة الفؤاد للمكروب ، المقعدون الضائعون الناهون ، يفرحون ، كمثلما فرحت بالخطاب يا مسيحي الصغير .

هنا يبلغ عبد الصبور ذروة الصدق في التجربة لانه بلغ ذروة الصلاة ، فهو ليس يقبض احاسيسه ، يقيدها وفقا للسوية الخلقية ، او الوطنية وانما تفيض من نفسه وتتصعد كبخور الصلاة ، ولعل الى مثل هذا الصدق يشير بعضهم عندما يقولون « الشعر صلاة »

الا ان هذه الحالة ، ليست تومض في شعر صلاح الا لحظة هاربة لا تلبث ان تغشاها العتمة ، فيعمى ، او يسير على هدى الآخرين ، فكما انه احتذى على غرار نزار قباني في قصيدتي : « منحدر الثلج والرحلة » نراه يتأثر وربما ينسخ نشيد الانشاد في قصيدة « اغنية حب » :

« وجه حبيبي خيمة من نور ، شعر حبيبي حقل حنطة ، خدا حبيبي فلقتنا رمان ، جيد حبيبي مقلع من الرخام .. »

لبست اود ان اعتقد بان الشاعر يدعي هذه القصيدة جدنيا وانما هي شيء من تقليد وربما مسخ لشعر الانشاد بما يعطل عبقرية الفن ، ويحوله الى المعابثة والتزويق .

اما قصيدة « سوناتا » فتتموج بين الرومنطيقية في حينها المبهم لتخوم غريبة ، وعالم غيبي جميل ، وبين الصنعة والمعرفة ، فيما نمته للحب ولعالمه من صفات عرفت في تقاليد الغزل القديم . الا ان الصنعة ليست تتعصى على التجربة ، وليست تضيرها لانها تنطوي على شجو داخلي وتحسس بعاطفة الاشياء والطبيعة ، حتى لا ندرك اذا كان الشاعر يحب حبيبته في الطبيعة او الطبيعة في حبيبته : ولا تشغلي ... اننا ذاهبان ، الى قرية لم يطاها البشر ، لنحيا على

بقلها ، لا الحياة تضن علينا ، ولا النبع جف - ونصنع كوخا حوالبه تل من الورد باحته، والسجف - ويا فتنني سامي رحلتي، وغربتنا الرفا المنظر . بيد ان عالم التخوم الجميلة ذلك ، لا يلبث ان تسفحه بشاعة الواقع يسعى به القوم في العبث واللاغاية . وهكذا نبصر الشاعر يعايش العالم الجميل في احلامه ، بينا يعيش ويردى ببلاهته وعقمه في الواقع . ولا يكاد يتخاذل وتطفى عليه شهوة العدم ، فيشارف على نهاية رينه وبيرون وفارتر، حتى يبصر حبيبته من جديد بين الزحام فيستعيد ثقته وايمانه بنفسه ولا يعود يحيا لحياة الناس والازدحام على البقاء التافه، بل يستضيء بحياة جديدة، ببعث جديد فتصبح حبيبته تمثل السعادة التي ، بها تجمل وتمتليء وتكافأ الحياة .

واقظني صاحبي يا (فلان) افق ، غمر النور وجه الوجود - ودوي القطار وماج الطريق - زحاما من الارض حتى السماء - يساقون والموت في مرصد ، لمركة البله والاغبياء - لاجل الرغيف وظل وريف وكوخ نظيف ووثوب جديد - وفي العصر شفتك يا فتنني، ولم نفترق في الزحام البليد - وقبلت ثوبك يا فتنني ، لانك انت رجائي الوحيد .

الا ان امرأة الوجد والبعث هذه لا تلبث ان تعقبها لدى الشاعر ، امرأة التجربة والخطيئة ، التي لا ينفك نغمها يعزف في خاطره ، يدوي في سكينته ، ويعتريه بالظنون ، ولا يعتم ان يستحيل الى زوبعة نقمة وثورة اذ يرى نفسه مكبله باصفاذ الحياء والضعف يعجز عن ان يبوح لحبيبته بحبه ، يتحرق به مع اصحابه الذين ليس لديهم ما يشبع اودهم من عوز الغد .

(جارتني مدت من الشرفة حبالا من نغم .. - بيننا يا جارتني بحر عميق .. بيننا بحر من العجز رهيب عميق

- القيت في رجلي الاصفاذ مذ كنت صبيا ... انني خاو ومملوء بقش وغبار ، انا لا املك ما يملا كفي طعاما ... - فاذكري زينه نور عيونني وعيون الرفقاء .. ورفاقي تفساء ، ربما لا يملك الواحد منهم حشو فم .)

فالشاعر ينفذ من التجربة الى تحليلها كظاهرة اجتماعية بين المرأة والزجل . فيستعرض نفسية الشاب الذي يعقد في نفسه لغز المرأة او بالاحرى عقدة الجنس يتجرر بها ، دون ان يجرؤ ان يواجهها وبالتالي ان ينتصر . وكذلك المرأة فهي دمية مرايا ولائيء ، تستنفذ ايامها في التزين الخامل كانها قصرت حياتها على دور الانثى التي تتبرج لتغوي الرجل او بالاحرى-لتغوي امير احلامها ، الذي تود ان تتناجى معه بما عرف من تعابير في كلاسيكية الفزل ، والفروسية . وهنا يلتفت الشاعر الى نفسه فلا يبصر نفسه ، اميرا بل فقير مملوء بقش وغبار ، يشاركه صحبه في عوزه اذ لا يملكون حشو فمهم بالرغم من اهتمامهم بتقرير المصير . لاشك ان صلاح يحتدي في هذه القصيدة على غرار البياتي في قصيدة « الحرير » . لكننا بالرغم من ذلك ، نكاد نبصر فيها وجهها من وجوه نفسيته . فهو ليس يتحدث عن المرأة

بما هي امرأة ، وانما بمشاكلها الاجتماعية . فاذا كان الفن تعبيراً عن هموم النفس ، فاننا نستدل بذلك على ان هم الشاعر ليس المرأة بل المجتمع . وبذلك نبصر حقيقة التجديد في الادب اذ تختلف مواضيعه وتتجدد باختلاف نظرة الشاعر للحياة ، باختلاف مثله العليا ، وبالتالي همومه . فلو كان الشاعر يرى الى المرأة كدمية للعبث ، لانانا بغزل جنسي كغزل نزار قباني . الا ان نظرتة اليها كمواطنة جعلته يتحدث عنها بفساد واقعها في مجتمع لا يفهم حقيقة رسالتها .

وهكذا نشهد ان الشاعر قد تصدق تجربته فيما يتحدث عما يعانیه من المرأة ثم لا تعتم ان تغضب وتكاد ان تزيغ ، عندما تصحبه او تطاه ، عبر عملية النظم ، اخيلة بعض الشعراء ، وتوجهه بعض الالتزامات الوطنية ، فيجاري السوية الخلقية على السوية النفسية ، اذ يداخل غالبا امر جهاده ورفاقه في حديثه مع حبيبته . كما اننا اذ نسلف هذا الرأي نتد دون الجزم به ، لان نظرة الشاعر الى المرأة ليس تتكامل الا بتكامل دراستنا لشعره ، فهو لا يتحدث عنها مستقلة ، بل مرتبطة بنظرتة للوطن والمجتمع وسائر قيم الوجود . انها وجه من وجوه معاناته الكبرى لعدم التكافؤ الاجتماعي الذي يؤدي الى ظلم القوى بالضعيف، الى تلون الحق بلون القوة ، وما الى ذلك من احوال ، تلابس اوصاف واسماء شتى ، تختلف ظاهريا وتتفق جوهرها في الدلالة على فساد الحياة وعقمها .



صلاح عبد الصبور

وتكاد لا تخلو قصائده من تلميح الى هذا الظلم والاعتصاب فهو آنا طائر اجدل منهوم ، وحيننا طارق مجهول ملثم ، يومض في عينيه خنجران مسقيان بالسموم ، هو تارة تترى الدمار ، وطورا ذو الوجه الكئيب المستعمر . ولا يلبث هذا المغتصب ان يداهم اذاه فيتحول عن كونه تهديدا. بالاعتصاب ووصفا له ، الى مأساة ، بل فجيلة اذ نراه يزرع الضحايا الابرياء في طريقه . فالطائر الاجدل يغزو طمأنينة وقناعة الطائر الصغير في عشه فيستحيل هذا العش الى مشهد من مشاهد المأساة الكبرى التي تعقد في نفس الشاعر عقدة الاسى بالوجود والتهاك فيه .

اما الطائر الملثم فيجثم على حياته يشغله بامر تقرير المصير عن سعادة الحب ووعوده ، فيعيش وحبيبته ينتظران نزهة الانتصار في الجبل بعد ان يواجهها هذا الملثم ويحسما امر مصيرهم . ومن ثمة نبصر التنازع بين كلفى الجحيم ، يدمرون مدينة الحضارة ، بينا يعود المستعمر يقتحم عليه بلاده وابناءها ، فيشنق زهران ويشج جبين ابيه ويندق الحديد على رأس اخيه .

هذا هو وجه المأساة التي يتردى بها الشاعر ، مأساة

تقصيه عن يحب ، اذا كان محبا ، وتنقض على عش عائلته
اذا كان والدا ، وتدمر مدينته وتستنزف موارده انسانا
ومواطننا .

ولعل صدق تجربته يبدو هنا ، في انه يعاني مشكلة وطنه
دون ان يعتمد الى الدوي والرصاص وما الى ذلك ، من
تعبير دنكوشوتيه ، ، يمتطيها بعض الشعراء ، ليوهموا جماعة
القوم بصدق التزاميتهم . فبعد الصبور لا يتفجع ويرثي بلاده
كأرميا ، ولكنه ليس يصف ويستخفي مأساته ، كإسطل
« كورنيه » وانما هو كفنييه ، يمثل مثل الانسان الحق
الذي يحزن ويأسى لكنه ينطوي على حزنه يتضمنه ، بصمت
واتزان :

« يا صاحبي اني حزين ، طلع الصباح فما ابتسمت ، ولم ينر وجهي
الصباح - ، واتى المساء - في غرفتي دلف المساء ، والحزن يولد في
المساء لانه حزن ضرير ، حزن صموت .. حزن تمدد في المدينة - كالص
في جوف السكينة ، كالافعوان بلا فحيح ... »

هنا يبدو الشاعر مستسلما لحزنه ، لكنه ليس الحزن
الصغير التافه ، بل حزن ذوي المصائر الكبرى عندما يعانون
مصيرهم ، وتتحول بهم المصاعب الى التشاؤم والاسوداد .

« ما نحن الا نفضة زعنا من ربح سموم ، او امنية حمقاء والشيطان
خالقنا ليخرج قدرة الله العظيم ، او اناسمينا ببرج النخس كانا يا صديق» .
ففي هذه الايات يؤمن الشاعر ايمان ابن الرومي بكيمياء
السعد والنخس ، ويشك كشك ابي العلاء وبودلير بنفسيهما ،
حتى ليخيل لهذا الاخير انه نعم شاذ في سيمفونية الاله
الكبرى .

وسرعان ما يتحول تشاؤم عبد الصبور الى خطيئة اليأس .
فلا تسعفه معرفته بأنه قادر على « ان يصنع الصباح
وافراح الضياء » فيخفض رأسه ويوح باستسلامه
وترديه :

« اما انا فلقد عرفت نهاية الغدر العميق ، الحزن
يفترش الطريق . » ويطالعا الشاعر بمثل هذا الاستسلام
في قصيدة « السلام » حيث يشيع جو اليأس والتهالك
وفي قصيدة « الى الابد » حيث يخيل اليه ان حياته
ستستنفذ في دوامة السواد والبياض . هذه القصائد
جملة يغلب عليها جو الاعتراف ، فهي تطالعا بوجه قائد خسر
المعركة ، تشخص خيبته امامه ، كوجه حزين مسلول
يفترش طريقه ابدا . في هذه المعاناة الصامتة تبدو انسانية
الشاعر ، فهو يتعد عن عنجھية الشعراء الذين يدعون
الوطنية كما ادعى بنو اسرائيل الههم ، ينادونه بأفواههم
وقلوبهم بعيدة عنه ، يتعد عن هؤلاء ويبيكي ، ولكن بدمعة
ابي فراس العصابة الخرساء ، يأس ، لكن يأس المؤمن
الذي يفقد نعمة ربه وليس يأس الكافر الفار ، الذي يتحول
يأسه الى عبث بالقيم وتنكر لها . وهو لذلك ليس ينجر
بالحرية والشرف « كالرجال والقراد والقواد والحاوي
الطروب » ، هو لا يبيع الحق بثلاثين من فضة الشهوة
والمصالح وانما يأسه وخطيئته ، كخطيئة بطرس ، الذي
ينكر الحق ثلاثا ، لكنه لا يعتم ان ينهض ويصبح الصخرة
التي تبنى عليها بيعة الحياة الجديدة :

« امام قولي للصفار .. ، ايا صفار ، سنجوس بين بيوتنا الدكاء ، لن
طلع النهار ، ونشيد ما هدم التتار » . او يقول : « وااحدي وعرفت
القلم - كتبت به احرفا شاعره ، ليعرف اخوتي الاصفياء ، نشيد البناء ،
الملك لك » .

وهكذا ينتهي من مراحل الهدم والتهدم ويشرع فسي
البناء ، البناء المؤمن الرسول . ويطيب للشاعر في زهوه
ان يسبق اماله في الطريق كما يقول نسيب عريضة ، فيخيل
اليه انه انتصر على المغتصب واذنابه وحاشيته :

« سيموت ذو الوجه الكئيب ، سيموت مختنقا بما يلقيه من عنف على
وجه السماء ، في ذلك اليوم الحبيب ، ومدبنتي معقودة الزنار مبصرة
سترقص في الضياء ، في موت ذي الوجه الكئيب . » او يقول : « وااحدي ،
في المساء الاخير الوب الى غرفتي ، وبزحم نفسي انبهار غريب ، وانظر
يا فنتتي للسماء ، ومن بابها الذهبي الضياء ، يضيء الدجى بانهمار النجوم
ينور في وجنتيها السلام ، وتصدح اجراسها بالفرح ، وافرح يا فنتتي
بالحياة وبالارض ، بالملك ، الملك لك » .

وهكذا يبدو ان عملية الاصلاح لدى عبد الصبور ، صيرورة
تمد وتجزر بين اليأس والفشل ، تتكامل كما تتكامل حياة
الاولياء بالمجاهدة والتموت . فبين رغبته بالاصلاح وتحقيقه
لها يشخص جحيم النفس التي تبشر اصلاح ذاتها دون
تبجح وتذيع . فشعره لذلك شعر تجربة يعاني فيه مأساة
الاصلاح وتمزقه كما شعر بها المصلحون الذين يحملون على
اكتافهم عبء الانسانية جميعا .

الا ان صلاح لم يلزم شعره بنفسه على ابناء الشعب ،
وانما افاض في وصف هؤلاء يصلحهم آنا بالسخرية المضرة
وآونة بالاشفاق والرھبة ، وغالبا بهذه جميعا كما في قصائد
« الناس في بلادي » « زهران » و « الملك لك » .

ولعل قصيدة السندباد هي اولى القصائد التي توضح
هذه المحاولة اذ نبصر فيها الشعب من خلال اعماله واقواله .
فالسندباد يمثل فضلا عن حب المغامرة نداء المجهول الذي
ينبغي ان يحرك الانسان ليدرك حقيقته ، فلا يكتفي المرء بأن
يعيش دون ان يسعى لاكتشاف الاسرار التي تحيط بعيشه ،
لا يقتنع بما جرت عليه عادة الاشياء ، وقناعتها المتدلة ، لا
يكتفي بالاستمرار التافه فيغرس كرمه ونبذا ويتناسل ،
كما يعيش في غريزة الاشياء ودوامتها المبهمة ، بل ينبغي
ان يتخطى ذلك فلا يعود همه هم العيش ، بل هم عيشه وما
وراءه ليحيا في حقيقة الاشياء ، دون عاداتها . اما الشعب
فقلما يصحب سندباد العقل والمجهول في مغامراته ، واذا
قدر له شيء من ذلك ، فاننا نراه يهوم ابدا في فلسفة
ساذجة لا ترى بهجة الحياة وغناها بل شؤمها وباطلها في
موت الانسان ومبارحته الدنيا دون امواله وذويه . ولقد
وفق الشاعر في اثاره جو هذه الفلسفة وتشخيصها في
تصوير عزرائيل الشعب ذي الدفتر الصغير الازلي ، بدون
فيه الارواح التي سيدرجها الى الجحيم ، فهذه الفلسفة
العدمية الساذجة بالاضافة الى ايمانهم بالقدر ، يجعلهم
يتقاعدون عن السعي لكسب حياتهم ، فكيف بتجديدها
وبعثها او المشاركة بحضارة الانسان؟! فلا عجب ان يصير
الشاعر هؤلاء يتهاكون ويستحيلون الى جماعة من الذين

الموت ، وانما يطلب النوم ، اي مهلة يستريح فيها ليعود ويواجه الحقيقة والحرب التي تتصدى لطريقه المصعب الشريف . ولعل بودلير اشار الى هذه المحنة في قصائده التي سماها « الاسى والمثل » المثل التي يحيها في جنة الذهن والاسى ، اسى الواقع الذي يسفحها ويحيلها . فتجربة عبد الصبور بذلك تجربة صادقة لانها تعبير عن عقدة المثل في نفسه لم يفتعلها بارادة بل تعقدت فيها بالرغم منها كتعقد الحياة او بالاحرى لغز الحياة الذي يورى النفس بحرة المجهول .

★

الا تجربة عبد الصبور بالرغم من اختلافها على مواضع عديدة ، فهي لا تعدو ان تكون متوحدة متشابكة يستظل الموضوع الواحد فيها ظلال سائر المواضيع فتمتزج وتتآلف حتى ليستحيل علينا ان نتبين حدودها . فالمرأة هي وجهه من وجوه نظراته للمجتمع ، وكذلك الشعب والمصير فهي جميعا متآخدة ، متلاحقة تؤمض احوالها في نفسه كملامح مختلفة بحقيقة نفسية واحدة ، تتخبط به في نزوعه من الانسانية البشعة الزائفة الى فردوس الانسان المتكامل .

اما ثقافة التجربة ، وهي لا تقل اهمية في سوية الانسر الفني عن التجربة ذاتها ، ان هذه الثقافة ترجح في شعره ، فيينا نراها تفتقد في قصيدة حتى لتهيض وتسف ، اذا بها تؤمض في صورة او في فلذة قصيدة اخرى حتى لا تكاد تتكافأ . فلو اتخذنا قصيدة « اغنية صغيرة » التي يتحدث فيها عن الحق الذي يجانب القوي على الضعيف لافيناها تقوم جوهرها ، على فضيلة حكاية شعبية ابتدلت لكثرة التداول . فهو يصور طائرا قويا ينقى على طائر صغير مما يجري ابداء على السنة الشعب وحكمته . الا ان الشاعر لم يدع هذه الاقصوة السافرة ، وانما حاول ان يغير ملامحها ، فاستضاف عليها بعض التفاصيل ، وحولها الى مشاهد مسرحية ، في الفة الطائر الصغير مع اليفته ، وحنانه على وحيد الزغيب ، فاستخفى ملامح القصة ليوهم القاريء بالجدة والابتكار ، وليموه عن عجز ثقافته في الاتصال بحقائق الانسان الخفية . وكذلك القول عن قصيدة « شفق زهران » التي تقص قصة شاب حر هصره الاستعمار . ليس في هذه القصة اخيلة او عمق تأويل وانما هي قصة لا يعدر جوهرها الخبر الصحفي الشائع او حكاية اللسانة في الاندية والمجالس ، اعتمدها الشاعر دون ان يقوى على نقلها من واقعها الشائع الى المظاهر الفكرية التي تنكفيء وراءه ، مما لا يبدو لطبيعة العقل الساذج . لذلك تسلط عليها ، يموهها ويظليها بالغموض لتلتبس القصة وتعمى ، فيتوهم القاريء الجدة في الغموض ، طفق يكسو الحادثة والمعنى بصور نفسية حتى يفتقد المعنى هويتسه القديمة ويتزور في هوية لا يلبث ان ينكشف زيفها . فهو لا يقول ان زهران احب ، بل يداور ويرواح هذا المعنى ، فيزعم ان زهيرة خضراء لكثرة ماء الحياة ، حمراء التاج ،

— التتمة على الصفحة ٤٦ —

يرتدون جلاباب الكتان القديم ، جلاباب البساطة والعقم ، يبلون الجوع دون ان يتحفزوا للثورة ، يلبثون على سداجة الله والقدر ، بينا يستبد بهم المستعمر مع حاشية الدجالين والقرادين الذين يبيعون القيم بمسال او بوظيفة ونفوذ . هكذا يستمر جماعة الشعب يحلمون بما يريدون ان يحققوا من رفاهية ونعمة وفقا لما شاع في اساطير الف ليلة وليلة « بقصر مشيد وحورية في جوار السرير ومائدة فوقها الف صحن » ، يحلمون بهذه دون ان يسعى احدهم للثورة الا الفتى خليل الذي يرفع يده الى السماء ، معلنا ثورة الجيل الجديد العتيده . لكن الشاعر لا يعتم ان يشهد امه تجاري نفسيتها نفسية الشعب ، تداويه بالتعاون ، تدربه على تقاليد المعيشة ، حتى ينزع العمى عن عينيه فجيعته بأخيه وابيه للذين شج رأس احدهما الاستعمار ، بينا غز الحديد على رأس الثاني . وشدا ما يتميز غيظ الشاعر عندما تلبث امه ، ويلبث القوم بالرغم من الفجيعة وتلك الجرائم ، يدعون ويتضرعون بقدرة مبهمه ، يدعونها حين القدر واحيانا القضاء او يتعاودون بأسماء الانبياء ومن اليهم . وكأنما اراد عبد الصبور ان يشير الى عبث الشعب بمفهوم الدين ، واتخاذها على غير حقيقته حتى يتحول الى خدر تخدر به كبرياؤه وطموحه . وهكذا تصبح اسماء الاولياء والقديسين رموزا لتهرب الشعب من مواجهة نفسه والتخفي وراء اشياء ابتدعتها وهمه ، ليتخلص من وطأة نفسه ، وهكذا ايضا نصر سخريه الشاعر تمزج بالنعمة ، وتهكمه تشوبه المرارة فلا يدع وجها من وجوه هذه المهزلة الا وتصدى له حتى يخيل اليها ان وراء هذه المهزلة الصامته ، تكمن مأساة الانسان المعاصر ، فيصح فيها قول موسيه : « يا لها من مهازل لا تكاد نتضحك لها حتى نبكي منها » اذن فمأساة الشاعر في احلامه المثالية التي تريد ان تبني جنة الارض ، يسر بها ، فكرة او شوقا يراوده ، حتى اذا نفذ الى الواقع رأى ان تحقيق احلامه يصعب وربما يستحيل ، فيشعر بالخيبة بين الحلم والواقع ، خيبة من فقد جنته وفردوسه الحقيقيين . فمأساته ليست كمأساة ابن الرومي الذي تعصى عليه التكافؤ مع عصره ليكتسب خبز البقاء ، وانما مأساته كمأساة المرسلين الذين يفتلون في بث دعوتهم وتحقيقها . لذلك نرى شيخ الاسى والياس يهومان باسوداهما على قصائده ، حتى ليخشى الشاعر ان يواجه الصباح ، لانه يخشى ان يواجه احلامه وحقيقته التي تتداعى وتستحيل امام صعوبات الواقع :

« نزع الماء ولم ازل احيا باحلام النيام ، ارد النهار بمقلتي سامان من هول الزحام ، ماذا علي لو انطقت لفرقتي .. حتى انام - وافوص في بحر السلام . النور عملاق يزلزل هداتي .. ويهد امي ويريني الهوى العميق لرحلتي ، فيربع ظني ، يا ليل يا راخي ومصباحي وافراحي وكنتي ابعد رماح النور عني.. »

فالنور يزلزل هداته كالحقيقة لانه يطلعه على الجحيم العميق الهوي لرحلته ، فكان طريقه طريق الجلجلة . هنا يتمنى الشاعر ان يغمره الظلام بسلام النوم ليتروح من وطأة نفسه . فهو ليس يستسلم كالرومنطيقين ويطلب راحة

شعر عبد الصبور .. بين المعرفة والتجربة

الصبور تجليا ، فتصدق تجربته وتصفو ثقافته وتبلور صورته ، فلا نعود نبصر وطأة النظريات والاشخاص عليه الا ان مثل هذه القصائد وتلك الصور تندر في شعر عبد الصبور ، وتلبث القصيدة تتموج بشريط من الصور التي يخيل لنا اننا نعرفها في مشاع الصور وان كنا نعجز ان نسترجعها الى اصل غير اصلها . لذلك يمكننا ان نقول ان شعر عبد الصبور لا يقوم على فضيلة العمق في التجربة والصور وانما على فضيلة الاخلاص غالبا وجدة الموضوع المتأتمية من جدة نظرتة الى الحياة . فهي لذلك لا يمكن ان تقطع بانها ليست شعرا كما اننا لا يمكننا ان نرضى بها كشعر خالد سوي نطل به على قمم العالم والخلود وانما هي تترجح بين ذينك الحالين ، تشرق فيها لحظة حدس خارق فتتدف الى الذروة في بيت او صورة وينطفئ حدسها غالبا فتتهالك وتسف .

★
واننا ، بعد ، وان تعرضنا لانسانية التجربة واخلاصها ومن ثمة للملامح الثقافية فيها فلسنا ندعي بذلك ان هذه العناصر تنوجد متفصلة في النفس وانما تومض جميعا ، عبر غفلة مبهمة في حالة لا حدود فيها او استقلال وتفصيل ، ولا يعدو ان يكون عملنا في عزل هذه الملامح ، احدي عن الاخر ، تواضعا نميز فيه بعض مميزاتها لنفسي منها جميعا ، الى فهم عام لمميزات الحالة الداخلية . فحري بنا بعد ان بصرنا بملامح التجربة ان نتعرف لكيفية نقله غيب النفس الى شكل فني ظاهر

★
لعل اسلوب الشاعر في هذا الشأن يقوم على فضيلة الصور المتطردة ، تتلاحق في الذهن كالارقام والاعداد في معادلة علمية . وليس هذا الاسلوب مما ابتكره عبد الصبور وانما قد استفاده من تجارب الشعراء الاجانب الذين جعلوا يراودون التجربة فيما هي حالة تومض في النفس ان تتحول الى فكرة ذات استقلال وخلود . فالشاعر يندهل عما في خاطره لئلا تستقر التجربة وتتواعم معانيها في تدرج منطقي يفهمه العقل فيشوهه ويميته . ولقد افضت في الحديث على هذا الشأن في مناقشة سابقة (الاداب مايو ١٩٥٧) مما لا جدوى من تكراره وانما اكتفي بان اشير هنا الى واقع غفل عنه بعض شعرائنا ممن انضوا لهذا الاسلوب . ان الصور المتطردة او هذه الملاحظات النفسية التي تتابع كشريط من الاضواء ، لم تكن وفقا لما بصرنا منها عند جدها الاكبر « رانبو » ، خواطر تتجامع وتتواتر كارقام علمية ، فالشاعر ليس يقيم معادلة التجربة بتلك الصور الارقام ، وانما هي في غيب نفسه المبهمة تشرق ملامحها متألفة

- تمة المشور على الصفحة ٢٨ -

نمت في قلبه . فتخايل انه ثقف المعنى ، فيما نماه الى الزهرة الخضراء والتاج الاحمر ، لكنه في الواقع اسبغ عليه زيا جديدا لا مجديا دون ان يتيسر له بعمق التأويل ، يستمدته من عمق ثقافته . واننا لنشعر غمبا نتاوه ، بتعمد الشاعر وكده في تصوير المعنى ليخلع عليه جدة الصور او تمويهها . نستدل من ذلك جميعه ان الشاعر فيما يعييه التحسس بجذور التجربة ، يقنع معانيه باقنعة الصور الذهنية الخارجية فيأتي برسوم خرساء لا رصيد لها في النفس .

الا اننا قد نشاهده يفتض عقم الاشياء والظواهر ، فيستطلع مما وراءها معاني ونظريات ليست تشرق الا في الفن المثقف . فالشاعر ليس يمثل السندباد في خرافة السفينة المبهمة ، بل ينفذ مما شاع عنه من مغامرات الى الاصول النفسية التي تقررها ، فلا يعود السندباد يمثل طرافة المصير ، بل طفرة الانسان الهارب من دوامة نفسه ، وراء المفاجأة والاكتشاف ، يتروح به ، ويستطلع حقيقته من حقيقة الوجود . وقد نثر على عمق التجربة ايضا في قصيدة « بحر الحداد » لانها تعتمد على القسرة النفسية . كذلك نبصر الشاعر يوشك ان ينفذ من حدود المعرفة الشائعة ، الى فهم جديد في قصائد الطفل ، الحزن والسلام ، فضلا عن الناس في بلاده .

لكن هذه الثقافة ليست متمالكة وليست تفيض او تشرق اشراقا كما نراها عند كبار الشعراء وانما تستضيء بضوء شاحب يخالج ويكاد ان يعمي ، فكأنه فيما تعقد بنفسه عقدة التجربة ، يلبث يتخبط بها ، دون ان ترفده ثقافته لتجتمع له صيرورة الانسان المعاصر ، الا انه وان قصرت ثقافته عن افاضة التجربة ، فان كثيرا من الاختبارات الفكرية والحياتية ، تتراعى من خلال الصور التي تكسو معانيه ، تتأخذ وتترافد ، في غفلة الحدس حتى يتوفر شعوره بومضات عميقة المعاناة والتجربة :

« واتي المساء ، في غرفتي دلف المساء ، والحزن يولد في المساء لانه حزن ضريب ، حزن طويل كالطريق من الجحيم الى الجحيم ، حزن صموت ، والحزن لا يعني الرضاء بان امنيه تموت ، وبان اياما نفوت ، وان مرفقنا وهن ، وبان ريحا من عفن ، مس الحياة فاصبحت وكل ما فيها مقيت » او يقول : « جارتي مدت من الشرفة حبالا من نغم .. نغم كالنار يقلع من قلبي السكينة ، نغم يورق في نفسي ادغالا حزينة »
... وكذلك في القصيدة الاولى من الديوان : «

« الليل يا صديقتي ينفضني بلا ضمير ، ويطلق الظنون في فراشي الصغير ، ويثقل الفؤاد بالسواد ، ورحلة الضياع في بحر الحداد . »
وثمة قصيدة الطفل في الديوان التي يتجلى فيها عبد

« امي .. انت بسفح ذاك التل بين الهارين ، والليل يعقد للصفار
الرب من تحت الجفون ، والجوع والشوب الشفيف ، والصم والسعلاة
والظلماء تقعي في الكهوف ، اترى بيكت لان قريتنا حطام ..؟ »

فهو هنا يصف جو الرعب والخوف الذي يستبد باللاجئين
الهاربين بسفح الجبل فيصف عيون الصفار والجوع والعري
واصوات حشرات الليل ليعقد في نفسنا مشهد الصورة
او خطوطها الكبرى ويدع لنا ان نتملى ظلالها واجواءها ،
هذا الاسلوب الصوري المتدرج ، قد يوهمنا ويوهم صاحبه
بصدق العملية الفنية ، لكنه ليس في الواقع الا تخديرا او
تهربا منها لانه تعداد ذهني يبتعد عن التجربة ليشاهد
خطوطها الكبرى الناتئة التي تعدم الظلال والاهداب . وانا
يسهل علينا ان نتصرف لوصف حالة نفسية بنظف من
الصور الذهنية ، فأمثل الفرح النفسي ، بصباح ابيض
تشرق اضاؤه على جنائن خضراء تصدح فيها الايكة ، بين
الضوء والعبير ، الا ان عملي هذا لا يعدو ان يكون معادلة
كيميائية او حسابية لا عصبية فيها ولا معاناة . وايسر لنا
اذا تحول الشعر الى هذا العبث الخارجي ، ان نقيم لكل
حالة من احوال النفس معادلتها المفننة فيكتفي الشعراء من
عناء الكد وراء صيرورة شعرهم الذاهلة . الشعر كالحياة ،
حدوده ابعد من حدود المنطق والفلسفة ، لانه ليس
يتسلط على النفس ليفهمها ، وانما هو النفس
فيما تعاني وتحقق ذاتها . وكل ارادة او ادراك يتسلط به
على النفس يعطل حقيقتها ويصبح كالعقل والمنطق قيادا
يقيدها من الخارج . الفلسفة تسعى الى تفهم النفس . اما
الشعر فيسعى الى ان يتعمق ويتملى تجربتها لذلك كان
التعداد والابتسار والتجزيء تمثل جميعا مثل المعرفة
والاخفاق .

وقد تشخص في العملية الفنية ظاهرة خارجية اخرى في
تلك الصور التي لا نشاهدها او نشاهد اشباهها في الواقع
وانما كانت تنشر الويتها في خيال بعض الشعراء الاجانب
الذين اغرقتهم همومهم الفنية في غيبوبة دائمة كغيبوبة
الانبياء ، لذلك جعلنا نبصر في شعرهم صورا تقرب بغيراتها
الى صور « الابوكليس » او رؤيا يوحنا ، تفيض في تلك
الرؤى الفامضة التي تسكن اذهانهم من جراء تعطل حواسهم
الواعية وتداخلها بعضا ببعض . وانا بعد درسنا لشعر
عبد الصبور الفينا تجربته تذهل بعض الاحيان ، لكن
لا تلبث ان تختل حواسه وتفيض بمثل هذا الهذيان
الصوري ، لذلك لست ادري الى اي حد يمكننا ان نعتقد
ان الصور التالية مفاضة من اعصابه لا من ذاكرته : « ومشى
الحزن الى الاكواخ تنين له الف ذراع ، كل دهليز ذراع . »
او هذه الصورة : « عيناه خنجران مسقيان بالسموم
والوجه من تحت اللثام وجه بوم » فهذه الصورة متمعدة معدة
سابقا في الذهن ، بعد ان اقتبست عن صور « الابوكليس »
كما اقتبست صور « اغنية حب » عن نشيد الانشاد ، لذلك
فهي تتموج بين نبوءة رؤيا يوحنا ، وغرابة خيال شكسبير
واختلال او جنون اعصاب ادغار الن بو ، لكنها تخرج ابدا

وليست متلاحقة ، تفيض فيضا وليست تتدرج في منطق
كاذب مملول . فالعيب الفني ليس يتفق مع التعداد لان
التعداد عملية ذهنية منطقية ، ليست تقبض على ظلاله
واضوائه وما يتموج بين هذه وتلك من حقيقة الشعور
الذي تبرم فيه حقيقة النفس وبالتالي حقيقة الانسان .
فالشعر عبر تخطفه واشراقه ، ينبغي ان ينثال انثيالا كالضوء
من الشمس ان يفيض فيضا كالينبوع من معدن الارض . اما
اذا قبض وتقسط بافكار وصور فانه يتعطل ويجف . ولا
جدوى من الاسراع في ملاحقة الصور ومشابكتها . تعطيل ما
بينها من اسباب منطقية ، لان الصورة عندما تلحق برفيقتها
لا تعدو ان تكون في الواقع لحاق فكرة بفكرة او ادراك
بادراك وبالتالي منطق بمنطق . ولئن كان جماعة هذا الاسلوب
الفريبيون تنكروا لكل ملامح المنطق الواعي ، فان مقلدي هذا
الاسلوب عندنا ، غصبوا واو العطف ، على الدلالة المنطقية ،
لكثرة ما تتردد في البيت الواحد ، حتى كان الشعر يقوم
معها على تنظيم الصور وفقا لنظام كرونولوجي ، لا جذوة
فيه . ولعل عبد الصبور يحتذي حذو البياتي
الذي نجد واو العطف في شعره تقف كخلفية ممتدة تمنع
تصرف الحياة وتأخذها بين اعضاء الجسم الحي . والى
القاريء هذا المقطع من قصيدة « هجوم التار » :

هجم التار ، ورموا مدينتنا العريقة بالدمار ، رجعت كتابنا مزقفة ..
وقد حمي النهار ، الرابية السوداء والجرحى ، وقافلة موت ، والطفلة
الجوفاء والخطو الذليل بلا التفات ، واكف جندي تدق على الخشب ،
لحن السفب »

ففي هذا المقطع نرى الواو يطفئ جرسها ويشتد حتى
يتحول نغم القصيدة فضلا عن احوال التجربة ، الى وتيرة
واحدة ، تخالغ وتنازع حتى تستنفد شوق القساريء
للاستطلاع ، وتتحول فضلا عن ذلك الى عبء يطأه . وانا
دون ان نذكر هؤلاء بالحكمة القديمة التي ترى ان البلاغة
تقوم على حسن قطع ومواصلة الجمل ، نؤكد لهم ان هذه
الواو توهمهم بالانتصار لكنه في الواقع انتصار سهل حتى
كانه الانكسار ، سهل ان نجتمع اشلاء التجربة في ذهننا ،
نعاطفها بواو عييه ، لكنه يصعب ان نستكمل الصورة في
وحدة تفيض فيضا او تنتشر انتشاراً ، وليست تتعاور دفعة
وراء دفعة ، كلما اتصلت بحرف مमित لا دلالة له ولا ظلال .
وشد ما يتخذ عبد الصبور هذا الاسلوب عندما يحاول ان
يوشي الجو النفسي الداخلي بملامح خارجية في البيئنة
وما اليها . فيطفئ بطارد الصور الواحدة وراء الاخرى كانما
يخيل اليه انه يتعوض بسرعة دورانها الخارجي عن ذهولها
الداخلي ، وربما اعتقد ان الصورة اذا مرت بسرعة على حدقة
الذهن ليست تطبع فيه وانما تطبع ظلا لها او اثرا منها ،
وهكذا اذ تتوالى هذه الاثار بسرعة على حدقة الذهن تعمي
هذه الحدقة ، وتلتبس على ذاتها وتقع في الدهول ، الا ان
هذه النظرية ليست تصح في واقع العملية الفنية اذ تأتي
الصور مفككة تعمي الذهن دون ان تذهله ، لان تفكيكها
يعطل فيها الحياة وبالتالي حرارة التجربة :

عن السياق السوري القريب المتناول الذي يغلب على قصائد عبد الصبور .

ولقد افتض عبد الصبور الى ذلك ، تقليد الصوت الواحد في القصيدة الذي كان جرى عليه عمود الشعر القديم ، فجعل يداخل الاصوات ويخالفها كما أنه طفق يعتمد على التعابير الشعبية يجربها ضمن اسلوبه ليحرره من وثنية العبارة وذهنيتها فيقوى على تلمس حقيقة الشعب من خلال تعابيره ، فكما اننا نبصر زهران من خلال تصرفاته في شراء العمامة الخضراء ، كذلك نلمس مراسيم عرسه في التعابير الشعبية اذ يقول :

« كان يا ما كان ان زفت لزهرا جميله - كان يا ما كان ان انجب زهران غلامه .. وغلاما كان يا ما كان ان مرت ليايه الطويلة . »

الا انه لم يستطع ان يلاحم ويؤالف هذه العصور لتنسجم مع روح تعابيره .

وثمة ظاهرة الميثولوجيا التي كانت شاعت في ادب مطلع القرن الثامن عشر ، يتحدث فيها الشعراء باشواقهم في اشواق اشخاص الاسطورة اليونانية والرومانية . ولقد استعاد المعاصرون هذه الميثولوجيا ، لكنهم لم يستغرقوا في خيالها الاسطوري بل استمدوا الاسس الفكرية والنفسية التي يشير اليها يتخذونها كتنقية لافكارهم وتجاربهم . فهم يستمدون مواضيع شعرهم او معانيه من الاسطورة فيخصبونه ويضفون على واقع نفوسهم روعة السواق الاسطوري ويقينه .

وايا ما كانت الحال ، فان هذه النزعة ليست تجتدي الشاعر الا اذا شحذت تجربته ثقافة عميقة تنفذ من ظاهر الاسطورة الى جذورها الفكرية النفسية . ولقد اعتمد عبد الصبور هذه الظاهرة في قصيدتي « السندباد » « والناس في بلادتي » فاغنى تجربته بعض الشيء . الا ان تعطل النغم في تعطل القافية غالبا ، واستماتته في عقم الشجو الداخلي ، حولتا هاتين القصيدتين وغالب قصائده الى شبه معادلة محيرة ، لها ملامح الشعر دون حقيقته ، وكنت اود ان افيض في حديثي عن الموسيقى في شعر عبد الصبور الا انني آليت ان اتوفر لها بمقال مستقل لاحق لخطورة البحث وتعقيده من الناحية الفنية .

*

وبعد ، فانه يتضح لنا من ذلك كله ان صلاح الدين عبد الصبور شاعر يحاول ان يخلص في تجربته فيوفيق ببعض الصور الفنية وبعض التجارب ، لكن معرفته بنظريات الفن والحياة ، جعلت تطأه من الخارج ، بعض الاحيان ، فلبث تترجح قصائده بين المعرفة والتجربة ، تصفو فيه بعض فلدات ، ويتردى سائره في وتيرة شائعة او في عقم النظرية والمعرفة .

إيلي الحايي

مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبناني

بروت - ص ب ٣١٧٦ - تلفون ٢٧٩٨٣

تعلن عن صدور منشوراتها الجديدة :

الى حضرات اساتذة ومدراء المدارس المحترمين في لبنان والبلدان العربية الشقيقة

قبل ان تقرروا كتبكم للسنة الدراسية المقبلة اطلعوا على السلاسل المدرسية الآتية :

- سلسلة الجريد في القراءة العربية ٧ أجزاء لمرحلة التعليم الابتدائي (الشهادة الابتدائية)
سلسلة الجريد في الأدب العربي ٦ أجزاء لمرحلة التعليم الثانوي (البرقة والبطالوريا)
السلسلة القصصية لطبيب الأدب ٣ أجزاء لمرحلة التعليم الثانوي
سلسلة التربية الصحية في المدارس ٢ جزآن لمرحلة التعليم الثانوي
سلسلة الاشياء والعلوم الجريدة ٥ أجزاء لمرحلة التعليم الابتدائي
سلسلة لتعليم القراءة الانكليزية ٦ أجزاء لمرحلة التعليم الابتدائي

THE NEW DIRECT ENGLISH COURSE

سلسلة لتعليم قواعد اللغة الانكليزية ٦ أجزاء لمرحلة التعليم الابتدائي

THE NEW DIRECT ENGLISH GRAMMAR

سلسلة لتعليم القراءة الفرنسية ٣ أجزاء لمرحلة التعليم الابتدائي

MON NOUVEAU LIVRE DE LECTURE ET DE FRANÇAIS

سلسلة الخطوط العربية الجديدة ٥ أجزاء لمرحلة التعليم الابتدائي

سلسلة لتعليم الخط الانكليزي ٥ أجزاء لمرحلة التعليم الابتدائي

NEW SCRIPT AND CURSIVE HANDWRITING

سلسلة لتعليم الخط الافرنسي ٥ أجزاء لمرحلة التعليم الابتدائي

LA NOUVELLE CALLIGRAPHIE FRANÇAISE

هنا ما نقدمه لكم عامنا هذا ، حضرات الاساتذة والمدرسين والمربين الافاضل ... رجاءنا ان تجروا فيه ما يساعدهم على المرحلة التعليمية الملقاة على عاتقكم ... ونقتطع الهدايا لكم الى ما فيه خير الناسنة

ناشر العلامة

ابن خلدون

ظهر الجزء الحادي عشر وهو بداية الجلد الثالث